أخلاقيات الترجمة: الأبعاد التكوينية للسلوك الترجمي

د. محمد شوقي الزين

أستاذ محاضر (أ) في الفلسفة، جامعة تلمسان.

مخبر «الفينومينولوجيا وتطبيقاتها» (رقم 71)،

مشروع البحث في التكوين الجامعي PRFU: «التأويليات في الفلسفة والتصوف».

mczine13@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2020/12/06	2021/01/04	2021/06/01

ملخص:

أخلاقيات الترجمة هي مجموع القواعد الموضوعية والاستعدادات الذاتية التي يسير وفقها المترجم، وليست أحكاماً قسرية أو مواعظ. إذا حدَّدنا القواعد الموضوعية في المعرفة الكافية والوافية للغة أو اللغات المراد الترجمة منها أو الترجمة إليها، فإن الاستعدادات الذاتية تتلخَّص في طبع المترجم أو ما سمَّاه اليونان القدامى «إيثُوسْ» (ethôs) الذي انحدرت منه الأخلاق (ethics). لكن وجب التفريق بين الأخلاق الجمعية (morality) ذات الأحكام القسرية حول ما ينبغي فعله أو الامتناع عنه، والأخلاق الفردية (ethics) هي مجموع الاستعدادات والطِباع التي يتفرَّد بها الشخص. عندما نتأمَّل جيّداً، نجد أن الترجمة تستجيب لهذا التفرُّد، وأن المترجم يعتمد على مواهبه وكفاءاته. الترجمة هي مجموع القواعد الخاصة بالعمل الترجمي، ويقوم المترجم بإنجازها في السياق التداولي الذي يتعيَّن عليه السلوك فيه. تصبح الترجمة هنا مسألة «سَمْت أو مَلَكَة» بالمفهوم السوسيولوجي عند بيير بورديو (habitus)، يقع بها المترجم على حافة الموضوع والذاتي، بين القواعد التي يُنجزها والاستعدادات الذاتية في الكفاءة التي يبذلها. كذلك، تغدو الترجمة مسألة «تكوين» بالمعنى الألماني الحديث لفكرة التكوين أو الثقافة (Bildung)، تقتضي مجموعة من الخصال التي تجعل من العمل الترجمي عملاً تكوينياً للذات المترجِمة وإتقاناً فنيًّا للمادة المترجَمة. تعمل هذه الدراسة على إبراز هذه الأبعاد التكوينية للترجمة التي هي شكل من أشكال الأخلاقيات العملية التي يضطلع بها كل مترجم.

كلمات-مفتاح:

الترجمة، الاستعداد، الكفاءة، التكوين، الثقافة، الفلسفة العملية

فهرس:

1. مفهوم الترجمة: الوساطة والتأويل

2. الخُلُقية والأخلاق: الطبع الترجمي

3. استراتيجية الترجمة وتكتيكية المترجم

***

التبعثر اللساني في بدء البشرية؛ البلبلة التي سببها انهيار بابل؛ التشتُّت الذي انجرَّ عن افتراق الأمم والثقافات؛ التصدُّع الذي لحق باللغات؛ كان لا بد لكل هذه العوامل أن تنتفي لكي تضطلع الترجمة بمهمَّة الرأب والوصل، فكانت الحاجة إلى الترجمة، أي «ضرورة الترجمة». عندما نتحدَّث عن الضرورة، فإنَّا نتحدث عن «الواجب»؛ وجوبية يقتضيها فك الغموض والالتباس عن النصوص المكتوبة في لغات أخرى. فلأن الترجمة هي «ممارسة» وليست فقط «نظرية» (سنناقش المسألة لاحقاً)؛ ولأنها اشتغال على النصوص بنقلها من لغة إلى أخرى، فإن كل ممارسة لها قواعد وضوابط، وتتمتع بأحكام. إذا كانت الترجمة عبارة عن «مهنة» كما هو الحال مع وظيفة الترجمة الفورية (Dolmetschen, interpreting)، فإنها تتطلب ما يُسمَّى بـ«آداب المهنة»؛ وإذا تعلَّق الأمر بترجمة فلسفية أو أدبية أو علمية (Übersetzung, translation)، فإن قواعد هذه الترجمة تُستخلَص من الممارسة الترجمية ذاتها.

1. مفهوم الترجمة: الوساطة والتأويل

قبل الوقوف عند هذه القواعد، التي سنرى أنها «خُلُقية» بالمعنى الحصري للطبع والموهبة وليست مجرَّد «أخلاق» بالمعنى العام للقواعد الإكراهية، يتوجَّب النظر أوَّلاً في دلالة الترجمة وأيَّة وظيفة تؤدِّيها للاضطلاع بمهامها. إذا اتَّفقنا على أن الترجمة تؤدِّي دور «الوساطة» (هذا جوهرها بالذات ومفهومها النظري والعملي)، فإن كل التعاريف الأخرى، ما هي سوى توكيد على الوساطة الترجمية: الوساطة بين لغة وأخرى، بين الأنا والآخر، بين المألوف لدينا والغريب عنَّا، بين النص والمتلقي، إلخ. هذا حدُّ الترجمة كما عرَّفه أحد أهم الباحثين والمبدعين في هذا الفن: «الترجمة هي حالة خاصة من التقارب الألسني؛ وبمعنى أعم، تدل الترجمة على شكل في الوساطة التلاسنية تتيح نقل المعلومة بين المتخاطبين في لغات مختلفة. تنقل الترجمة رسالة من لغة الانطلاق أو "اللغة-المنبع" إلى لغة الوصول أو "اللغة-الهدف"»[1]. الوساطة التي تشغلها الترجمة هي شكل من أشكال الاعتدال الذي يتحلَّى به المترجم، وشكل من أشكال الحوار والمثاقفة. كانت الوساطة دائماً الرسالة (بالمعنى النبوي للكلمة) في الربط بين العوالم المختلفة (الإلهي والبشري بالنسبة لهرمس، الهوية والغيرية بالنسبة للحوار بين الثقافات، إلخ).

الوساطة هي رسالة جليلة، تنبري منها مقوّمات السلوك الخُلُقي الذي نحاول أن نجد له منفذاً في العمل الترجمي. إنها «الجسر» في الربط والوصل وتقول «الجسارة» في الحوار والتلاقي. هناك ثابت ومتحوِّل في العمل الترجمي: «الثابت» هو النص أو التراث بمخزونه الشعري أو النثري، و«المتحوِّل» هو المترجم الذي يقوم بعملية النقل من لغة إلى أخرى. بهذه العملية الترجمية يتحوَّل الثابت بأن يهتزَّ بنيانه ويتغلَّف بسمات لغة أخرى. بحكم أن الترجمة هي أيضاً تأويل، فإن الثابت الذي يتحوَّل، معناه أنه يُؤوَّل. المترجم

هو مؤوِّل قبل كل شيء، يُحسن اختيار المصطلحات والعبارات، وفي هذا الاختيار تنبري عملية التأويل لديه. الكلمة اليونانية hermeneus التي انحدرت منها كلمة «هيرمينوطيقا» أو «نظرية التأويل» تعني في الوقت نفسه المترجم والمؤوِّل. أن يكون المترجم مؤوِّلاً معناه أنه يشتغل على نصوص مكتوبة. لا يُترجم التراث الشفهي سوى عندما يتمُّ تثبيته في الكتابة، فيصبح بذلك نصًّا قابلاً للتأويل.

هناك طبعاً الترجمة العفوية التي تُسمَّى أيضاً الترجمة التقنية وتُستعمل عادةً في المحافل الرسمية للتخاطُب بين المنتمين إلى لغات مختلفة؛ فيجدون أنفسهم في سياق اجتماع سياسي أو علمي. تأتي الحاجة إلى الترجمة العفوية لكي يفهموا بعضهم بعضاً ويستوعبوا الخطاب بينهم. أما الترجمة العالمة، التي تقتضي إنتاجاً أدبياً أو علمياً أو فلسفياً، فإنها ترجمة فكرية، تشتغل على نصٍّ مكتوب؛ يتطلَّب قراءةً وتأويلاً لمضامينه النظرية. أمَّا طرائق القراءة والتأويل، أو ما نسمِّيه بمشكلة المنهج، فإنها خاصيَّة كل مترجم، تبعاً لأشكال القراءة التي يتبنَّاها: هل يُترجم حرفياً أم يُترجم المعنى؟ إذا ترجم حرفياً، فإنه يراعي في هاته الحالة المرجعية الثقافية للنص بأن يأخذ بعين الاعتبار الخصوصيات الدلالية ومشكلة المتعذِّر ترجمته (untranslatable, intraduisible)؛ إذا قام بترجمة المعنى، فإنه يتصرَّف بحريَّة بالنص الذي يترجمه، لكن قد يهدر حقوق النص في تميُّزه وفرادته وغير قابيته للتنميط في لغات أخرى.

علاوةً على الحرف والمعنى، هناك مشكلة أخرى تخصُّ طبيعة الترجمة: هل هي نظرية أم ممارسة؟ هل يمكن أن نُفكِّر في الأسس النظرية للترجمة دون أن نترجم أم أن ممارسة الترجمة ضرورية لكل تفكير حول الترجمة؟ تختلف الأجوبة باختلاف سياقات المعالجة: إذا كان الأمر يتعلَّق بالترجمة التقنية، فإن ممارسة الترجمة أمرٌ أساس، لأن هذه الترجمة تكتفي بالنقل الآلي للكلمات والعبارات من لغة إلى أخرى ولا تحتاج إلى النظرية؛ وإذا تعلَّق الأمر بالترجمة العالمة (أدبية، علمية، فلسفية، إلخ)، التفكير في الترجمة يغني عن ممارسة الترجمة، وإن كانت ممارسة الترجمة شرط ضروري للتفكير في قواعدها النظرية. بالعمل الترجمي، لا يكتسب المترجم الكفاءات اللازمة فحسب، بل يُحسن استخلاص قواعد نظرية من النشاط الترجمي ذاته؛ بأن يُفكِّر في الترجمة من داخل الممارسة التي يزاولها. يتيح له التفكير في الترجمة تطوير أساليب جديدة من الممارسة واعتبار الترجمة ظاهرة لغوية وفكرية قابلة للازدهار.

زيادةً على التفكير المجرَّد في الترجمة وممارستها عملياً وتطبيقياً، المشكلة الأخرى الممكن طرحها تخصُّ هذه المرَّة النص الأصلي: هل يبقى عينه في اللغات الأخرى أم يفقد من أصالته؟ كان مارك دولوني قد بيَّن أن «المشكل الأول الذي تواجهه الترجمة هو إعادة بناء الأصل»[2]. معنى «إعادة بناء الأصل» هو إعادة كتابته في لغة أخرى مع كل المشكلات المرافقة لهذه الكتابة، مشكلات معرفية تخصُّ أصالة النص وخصوصية كلماته ومعقولية معانيه، إلخ؛ ومشكلات أخلاقية تخصُّ كفاءة المترجم في التعامل مع النص المراد ترجمته. الفكرة القائلة بأن النص الأصلي يفقد من خلوصه في اللغات الأخرى سوَّغتها مثلاً الحركة الكاثوليكية في المسيحية، التي كانت تعتبر الترجمة «تدنيساً أو انتهاكاً لحرمة النص» (sacrilege)،

خصوصاً النصوص المقدَّسة؛ فجعلت الترجمة حكراً على نخبة دينية وحرَّمتها على الآخرين. من هذا التحريم تبلورت العبارة الإيطالية الشهيرة «الترجمة هي خيانة» (traduttore, traditore).

أما الفكرة القائلة بأن النص الأصلي لا يفقد من خلوصه، بل يحتفظ بخصوصيته اللغوية بفضل عمل «المتعذّر ترجمته»، فشقَّت طريقها مع بداية الحركة البروتستانتية في المسيحية، عندما أقدم مارتن لوثر على ترجمة الإنجيل إلى الألمانية وكتب مؤلَّفاً صغيراً عنوانه «رسالة مفتوحة حول الترجمة»[3] بتاريخ 1530م، يُبيّن فيه ضرورة الترجمة وضرورة أن تكون متاحة للجميع؛ ذاهباً ضدَّ النخبوية الدينية التي تبنَّتها الكاثوليكية، والتي حصرت ترجمة النص المقدَّس وفهمه في الإطار الحصري للمجمَّع الديني المكوَّن من قساوسة وكاردينالات. أراد لوثر بالأولى «دَمَقْرَطَة» الترجمة وجعل فهم النص المقدَّس في متناول الجميع. نفهم لماذا كانت الترجمة ومشكلاتها المعرفية والتأويلية من اختصاص البروتستانت، الذين كانوا أكثر أريحيةً في التعامل مع الترجمة من الكاثوليك؛ وظهرت من بينهم شخصيات ترجمت وفكَّرت في الترجمة فلسفياً على شاكلة فريدريش شلايرماخر[4] (1768-1834م)، عميد كلية الدين في برلين ابتداءً من عام 1799م، وهانس جيورج غادامير[5] (1900-2002م) في ألمانيا، وأيضاً بول ريكور[6] (1913-2005م) في فرنسا.

2. الخُلُقية والأخلاق: الطبع الترجمي

عندما نتحدَّث عن الترجمة، فإنَّا نلتفت في الغالب إلى النص المراد ترجمته بالبحث عن مصطلحات مكافئة له في اللغات الأخرى، ونتحمَّل عناء السَّبر في أغواره وإمكاناته، ونأخذ عناية النظر في خصوصية بعض كلماته. لكن نادراً ما نلتفت إلى الفاعل نفسه، أي المترجم: من هو؟ كيف هو؟ ما هي الشروط التي تتوفَّر فيه لكي نحكم على بضاعته؟ يمكن الحديث عن شرطين أساسيين ينبغي أن يتوفَّرا لديه من أجل ممارسة ترجمية مُثلى: **1. الشرط الموضوعي** هو الكفاءة في الترجمة بتبيان إتقانه للغات التي يترجم منها وإليها، معرفة الأسلوب والتركيب، وأخيراً الإحاطة بالملابسات التاريخية الخاصة بالنص المراد ترجمته: سياق التأليف، جدل التأثير والتأثُّر، مآل النص بالنظر في الإضافة التي أتى بها والنقد الذي تعرَّض له، إلخ؛ **2. الشرط الذاتي** هو المهارة التي يُنجزها المترجم، بالنظر في السلوك الذي أتاح هذه المهارة وجعل إنجازها في العمل الترجمي أمراً ممكناً. نستحضر هنا الكلمة اليونانية «إيثُوسْ» (êthos) التي تحتمل فكرة الطبع والاستعداد. يتعلَّق الأمر إذاً بما هو عليه المترجم من قُدرة وجدارة، يُقنع بها المتلقي بجودة العمل الترجمي الذي يُقدِّمه.

تبقى المشكلة في تبرير التمييز بين الخُلُقية (éthique, ethics) عن الأخلاق (morale, moral)[7]. هل هو تمييز اعتباطي لغرضٍ جمالي؟ هل هو فاصل معرفي أم أنثروبولوجي، يخصُّ وضع الإنسان وبيئته؟ إذا كان الحدَّان ينتميان إلى الإطار المعياري نفسه وهو قواعد السلوك البشري، غير أنهما يختلفان من وجهة نظر تداولية، أي تبعاً لسياق الإنجاز أو الاستعمال. نقول «**خُلُقية**» عندما يتعلَّق الأمر بالتفرُّد أو الجانب الفردي والذاتي بما يُبرزه من استعدادات وقُدرات؛ ونقول «**أخلاق**» عندما يتعلَّق الأمر بالجمع أو الجانب

العام والكلي ويشتمل على فكرة الإكراه والجبر. لا يُخلُّ هذا التمييز بالوحدة الدلالية للحدَّين، لكن فيما الأخلاق هي أحكام عامة ذات حمولة قسرية، الخُلُقية هي إنجاز تداولي لهذه الأحكام في سياق كل فردٍ له استعدادات خاصَّة؛ فيقوم بأقلمتها في سياقه ويحتفظ بفُسحة من الحُريَّة بالمقارنة مع الطابع القسري لهذه الأحكام. يسلك الفرد في إطار قواعد معيارية ويقوم بأقلمة هذه القواعد بما يتماشى وإرادته الحرَّة في التوجُّه في العالم. سنرى بأن الفاصل خُلُقية/أخلاق هو البُعد الذاتي للفاصل استراتيجية/تكتيكية، كما سنتوقَّف عنده لاحقاً، بين المبنى في حتميته الموضوعة (نص، مؤسسة، عبارة)، والمعنى في قُدرته على الحركة والتعديل (تأويل، فعل، إشارة).

إذا طبَّقنا هذه الفكرة على العمل الترجمي، أيُّ سلوكٍ يتَّخذه المترجم إزاء النص؟ هناك قواعد في الترجمة يلتزم بها المترجم، لكن في سياق العمل، يتحلَّى بقيمٍ تجعله بمنأى عن التطبيق الجاف والعقيم لأحكام قسرية. نقول بأنه «يُمارس» ولا «يُطبِّق»، مع إشارة لطيفة إلى أن «**الممارسة**» تأخذ في الحسبان الفسحة الحرَّة في التقدير، و«**التطبيق**» هو إنجاز حرفي وصارم للقواعد. هنا يتدخَّل الطبع في إزاحة التصوُّر المعياري للعمل الترجمي. يمكن القول بأن المترجم له سَمْت أو طبع خاص في ممارسة الأحكام. نلجأ هنا إلى مفهوم «هَبْتُوس» (habitus) الذي طوَّره عالم الاجتماع الفرنسي بيير بورديو (1930-2002) وحدَّده كما يلي: «بنية منظِمة، تُنظِّم الممارسات وإدراك الممارسات»[8]. بنية منظِّمة للممارسات الترجمية في ما يخص موضوع بحثنا، وخصوصاً بنية مُنتجة أو مُبدعة: «"هَبْتُوس" هو الأمر الذي يُكتسَب [...] لم لا نتحدث عن العادة (habitude)؟ لأن العادة هي بشكل تلقائي متكررة، ميكانيكية، آلية، تعيد الإنتاج ولا تُنتج. غير أنني أردت التركيز على فكرة أن "هَبْتُوس" هو شيء مولِّد بقوة»[9].

حسب المعنى الذي أقرَّه السوسيولوجي بورديو، يتمتَّع المترجم بطبعٍ يُنظِّم بموجبه الممارسات الترجمية التي يزاولها. كذلك، عندما يُترجم، فهو ليس في سياق إعادة الإنتاج بنقل النص من لغة إلى أخرى، بل هو في مجال الإبداع بأن يعيد كتابة النص في لغة جديدة. يتجلَّى وجه الإبداع في المصطلحات المختارة والقُدرة على النحت والتوليد، وجمال الأسلوب الذي يُعطي للترجمة شكل التُّحفة الفنيَّة. كان توما الأكويني (1225-1274م) من المفكّرين الأوائل في العصر الوسيط الذين أعطوا لهذا الطبع أو «هَبْتُوس» قيمة تأويلية، مستفيدين بذلك من مصطلحٍ آخر استعمله أرسطو وهو «هَكْسِيس» (hèxis) ويقصد به القُدرة والنزوع الطبيعي لدى الفرد، وبشكل أخص «نمط وجود» الفرد. يقول توما الأكويني: «مهما كانت قيمة الشيء الذي يُتلقَّى، فإن قيمته تكمن في الطرق الخاصة بالمتلقي»[10]. إذا أعدنا ترجمة كلام الأكويني، نقول بأن قيمة النص تكمن في الطريقة الخاصة التي يُترجَم بها، ونعني بذلك نمط وجود المترجم نفسه، أي استعداده وقُدرته على الترجمة والتأويل. ليست هذه القُدرة مجرَّد حنكة نظرية في عملية الاستبدال والنقل بالخيار الاصطلاحي ولُعبة الدوال، بل هي حصافة بالمعنى اليوناني لكلمة phronêsis، أي حكمة عملية أو تعقُّل، وتقتضي فضائل (virtues)، عدَّدها أفلاطون في أربع فضائل وهي الحكمة والعدل

والشجاعة والاعتدال.

يجمع المترجم بين الفكر والممارسة، أي أنه يُقحم العقل في الفعل، ويستخلص من ذلك التعقُّل الذي يساعده في الإقدام على الترجمة. يستغرق «نمط الوجود» الذي يكون عليه المترجم ويتجاوز «نمط المعرفة» التي بحوزته. لا يكفي أن يكون المترجم ذا معرفةٍ واسعة ومتبحِّرة، أي موسوعية، للقيام بالترجمة، بل يقتضي الأمر أن يتحلَّى بالفضائل المذكورة، التي تُحدِّد خُلُقية العمل الترجمي، وتُبيّن لماذا على المترجم أن يكون عادلاً في ترجمة النص بأن يوفيه حقه في الأصالة الثقافية والخصوصية اللغوية، وأن يكون معتدلاً في الحكم على المادَّة التي يترجمها. يتفادى بذلك الكبرياء والتمركز، كأن يقوم مثلاً بمحو خصوصية النص ويُغلِّفها بعناصر أيديولوجية من ثقافته. تُحتِّم عليه الفضائل الفكرية والخُلُقية التحلّي بالعدل، بأن يقرأ النص بعيون النص نفسه ويفهمه في مرجعيته الثقافية، قبل أن يؤوِّل مضامينه ويستخلص منه تصوُّراً يتماشى مع نزوعه المذهبي.

الفضائل التي يتحلَّى بها المترجم هي إذاً «خُلُقية» مرنة ومفتوحة، تُدرج الدينامية في «الأخلاق» الصلبة والمعيارية. غير أن بين الخُلُقية والأخلاق تقاطعاً أو تداخلاً (chiasme) يجعل إحداهما «داخل» الأخرى بموجب التماثُل في الوظائف والأحكام، وليس بينهما تضادّ يجعل إحداهما «مقابل» الأخرى. نلمس هذا التقاطع في فقرة بورديو: «أن نتكلم عن "هَبْتُوس" معناه اعتبار الفردي أو الشخصي أو الذاتي على أنه اجتماعي، جماعي. "هَبْتُوس" هو ذاتية مشتركة»[11]. الاشتراك الذي يسوقه بورديو في إطار نظرية اجتماعية حول الفعل البشري، هو أن الفرد لا ينفصل عن المجتمع؛ فهو جزء منه ويُركِّبه بصُحبة الأفراد الآخرين. نُدرك الطابع الاجتماعي والمدني للإنسان، القائم على الاشتراك في الفعل والأداء، في فقرة بليغة لدى ابن مسكويه: «الكمال الخُلُقي [...] ينتهي إلى التدبير المدني الذي يُرتّب الأفعال والقوى بين الناس حتى تنتظم ذلك الانتظام ويسعدوا سعادة مشتركة»[12]. ولتبيان أن السعادة المشتركة تقوم على اشتراك الأفعال بتصحيح بعضها البعض، إذا كان هنالك خلل أو تقصير، يضيف: «قال الحكماء أن الإنسان مدني بالطبع أي هو محتاج إلى مدينة فيها خلق كثير لتتمَّ له السعادة الإنسانية. فكل بالطبع وبالضرورة يحتاج إلى غيره؛ فهو لذلك مضطر إلى مصافاة الناس ومعاشرتهم العشرة الجميلة ومحبتهم المحبة الصادقة، لأنهم يُكمّلون ذاته ويُتمّمون إنسانيته، وهو أيضاً يفعل بهم مثل ذلك»[13].

لا ينبغي أن نفهم من هذه الفقرة أن الكل يتجسَّس على الكل ويُراقب حركاته وسكناته، في نوعٍ من انتهاك الحُرمة والتعدِّي على الحياة الخاصة لدى الغير. ما يريد ابن مسكويه تبيانه هو إتمام مكارم الأخلاق، بأن يُساعد الأفراد بعضهم بعضاً على إكمال إنسانيتهم بالعيش المشترك والسعادة المطلوبة. لذا تنخرط فكرة ابن مسكويه في تصوُّر رومانسي حديث هو «تَبْرية» الطبع بإتمامه وإكماله أو ما يُسمَّى في الألمانية «بيلْدُونْغ» (Bildung)، نظرية في الاكتمال السلوكي والبحث عن المشترك الإنساني، قدَّمنا جوانبها التفصيلية في مشروعنا «نقد العقل الثقافي»[14]. يمكن القول بأن المهام التي يضطلع بها المترجم تنخرط في

هذا السلوك المتعيّن المسمَّى «بيلدُونْغ»، وهو إنجاز تداولي (في الظرف والسياق) للأخلاق العامة من حيث الالتزام بالقواعد والأحكام. بهذا المعنى، تكتسي الترجمة قيمة تكوينية، تتراءى في مجمل الفضائل الفكرية والعملية التي يتحلَّى بها المترجم ويُجنِّدُها في عمله الترجمي.

3. استراتيجية الترجمة وتكتيكية المترجم

علاقة التداخل والتكامل بين الخُلُقية والأخلاق، مع الاحتفاظ بالفارق الأساس في الاستعمال الدلالي، هي الوجه الآخر للعلاقة بين الاستراتيجية والتكتيكية، التي نستعيرها عن المفكّر الفرنسي ميشال دو سارتو (1925-1986م)، صاحب نظرية تداولية في سوسيولوجيا الممارسات اليومية. ما يُسمّيه **«الاستراتيجية»** هو النظام الصلب والثابت للتأسيسات التاريخية والمؤسَّسات المتجليَّة في الزمن، مؤسَّسات سياسية أو دينية أو اقتصادية أو تربوية؛ وما يُسمّيه **«التكتيكية»** هو المتحرّك داخل هذا النظام الثابت، من أفعال وصفقات ومقاومات وإزاحات[15]. لهذه الثنائية قيمة كونية، لأن المتأمّل في التركيبة الوجودية يجدها تتأرجح بين ثابت ومتحوِّل: الثابت في اللغة هو أنها أبجدية مكوَّنة من حروف والمتحوّل هو المعاني الناتجة عن تركيب الحروف في كلمات وجمل وفقرات ونصوص؛ الثابت في المعمار هو البناية من إسمنت مسلَّح وزجاج وجدران وأبواب ونوافذ والمتحوِّل هو الممارسات اليومية التي تعتمل داخل البناية؛ الثابت في المدينة هو العمارات والشوارع وإشارات المرور والمتحوِّل هو مجموع الحركات التي تغمر المدينة من ذهاب وإياب الرَّاجلين وتنقُّل المركبات من سيَّارات وحافلات؛ الثابت في المالية هو الرأسمال والمتحرّك هو جُملة الصفقات المحقَّقة بالبيع والشراء، إلخ.

إذا قُمنا بتوسيع هذه الثنائية على المبحث الذي يهمُّنا هنا، نجد أن الثابت هو النصوص المدوَّنة، أعريقة كانت أم حديثة، والمتحوِّل هو مجموع القراءات والتأويلات لهذه النصوص، ومن بينها الترجمة. أمام النص الثابت بدلالته الحرفية، أي باستراتيجيته في الإدلاء بالمعنى الذي يريد إيصاله، يتصرَّف المترجم بتكتيكية خاصَّة به، تشتمل على انتقاء المصطلح وإزاحة المعنى دون الإخلال بالمرجعية الدلالية والثقافية للنص. معنى ذلك أن المترجم يعمل بسلوكٍ تكتيكي داخل الصروح المشيَّدة للنص المراد ترجمته؛ ويعمل كذلك بسلوكٍ تكتيكي إزاء الاستراتيجيات الترجمية الموضوعة والمقنَّنة، التي تلزمه بمجموعة من القواعد والتوصيات. فهو كاللاعب داخل حلبة كرة القدم، يحترم قواعد اللعبة مع إمكانية أن يتصرَّف بحرية في الدوران وثقف المصادفات لإصابة الهدف. إزاء هذه الاستراتيجيات الموضوعة (النص، قواعد الترجمة)، يُبرز المترجم جانباً من مواهبه المطبوعة، يستعملها في سياقات خاصة من العراك مع النص والتحايُل على القواعد. فهو ليس «داخل» القواعد الترجمية ولا «خارج» مدوَّنتها المعيارية، بل على حافَّتها؛ وهو ليس «داخل» النص بالنقل الحرفي لهيكله إلى اللغات الأخرى، ولا «خارج» هذا النص بتحوير محتوياته.

إذا كانت خصلة الاعتدال من بين الفضائل التكوينية التي على عاتق المترجم تنميتها وتبرية ذاته بها،

فإن الوقوف على الحافَّة بين الداخل والخارج، هو الخيار السليم والمتعقِّل للاعتدال. يجمع المترجم بين الحرف والمعنى بعتبات ومستويات تتطلَّبها حنكته التكتيكية. كان أنطوان برمان[16] قد نَقَد في إحدى دراساته النزوع الترجمي في الغرب القائم على الترجمة الحرَّة، نعتها بالتَّمركز العرقي؛ ترجمة تقتل الحرف من أجل المعنى المصاغ أيديولوجياً. ما سمَّاه طه عبد الرحمن «الترجمة التأصيلية»[17]، التي يُحبِّذها على الترجمة التحصيلية والترجمة التوصيلية، يدخل في هذا التَّمركز العرقي. يُترجم الفرنسي نصًّا أجنبياً «كما لو» كان صاحبه يتكلَّم الفرنسية: كما لو كان أفلاطون أو ابن سينا أو سبينوزا يتحدَّثون الفرنسية. كذلك يترجم طه عبد الرحمن الكوجيتو الديكارتي «أنا أفكر، إذاً أنا موجود» (Cogito, ergo sum) كما لو كان ديكارت يتحدَّث العربية: «أنظر تجدا». قام شلايرماخر وبرمان بتشنيع هذه الترجمة التأصيلية، التي اعتبراها تمركزاً فاحشاً، يمحو أصالة المنطوق ويستبدله بمنطوق اللغة-الأم، كما لو كان النص الأجنبي يتحدَّث لغتنا!

يعمل المترجم بتكتيكية «البَيْنِيَة»، بين الداخل والخارج، بين احترام القواعد وإعادة تأويلها وأقلمتها؛ يعمل على تفادي الإسراف والتَّمركز، لأن الخُلُقية التي يتحلَّى بها تقتضي أن يجعل من الحكمة والعدل والاعتدال والعفَّة فضائل يتطبَّع عليها؛ أن يجعل من اللياقة نهجاً يسير عليه، فلا يُقوِّل النص المترجَم ما لم يقله، ولا ينسب إليه منطوقاً من خارج معقوليته ومرجعيته. من مهام المترجم أن يكون أميناً في النقل والتأويل؛ وهذه الأمانة ليست مجرَّد نقل حرفي لهيكل النص ومضامينه الفكرية، بل هي طريقة في العمل تُعبِّر عن مصداقية المترجم ودرجة الثقة الموضوعة في سلوكه الترجمي. ما يقوم به المترجم في سياق أخلاقيات الترجمة هو «استضافة» النص بالمعنى الجليل لاستضافة الأجنبي. هذه الضيافة (hospitality) هي أيضاً ذات تكتيكية بَيْنِيَة؛ تستقبل النص بأن تراعي منطوقه ومعقوليته، وتضيف إلى لغة الاستقبال شيئاً من قبيل فكرة أو معرفة.

الضيافة هي إضافة، عملية مزدوجة في مراعاة حقوق النص وتدعيم الذات بمعارف جديدة؛ لأن المترجم، فيما هو يترجم، يُضيف إلى رصيده المعرفي معلومات جديدة، ويُجدِّد اللغة-الأم التي ينقل إليها محتويات النصوص المترجَمة. يدفعه هذا السلوك الترجمي لأن يبحث في الاشتقاق وتاريخ اللغة ومباشرة النحت والبناء، كأن يبتكر مصطلحات جديدة ويختبر مفاهيم أخرى. الاشتغال على الموضوع وهو النص، هو بشكلٍ ما، الاشتغال على الذات؛ وهنا تتجلَّى بالضبط الأبعاد التكوينية للسلوك الترجمي. عندما يترجم، فإن المترجم يتكوَّن (sich bilden, self-formation)، يُجدّد اللغة التي يشتغل بها أو عليها، ويتحوَّل في نفسه بأن يكتسب مهارات جديدة ويُنمّي مواهب كانت قابعة في ذاته. تنخرط هذه المعطيات في صقل قريحته وتنمية استعداده، بأن يكون طبعه (idiosyncrasy) قابلاً للإبداع والعطاء.

تُبرز الضيافة في الأخير جانباً من علاقة الأنا بالآخر. فهي تُنمِّي قيم التعارف والمثاقفة، بإيجاد المشترك الإنساني؛ بفهم الآخر في مرجعيته الثقافية وفهم الأنا في حضرة الآخر الذي يُترجَم. تَعْمد الترجمة،

بوصفها ضيافة وإضافة، لأن تكشف عن قيم التواصل. ما معنى الترجمة إذا لم تكن في نهاية المطاف جسراً بين الثقافات تتبيَّن فيها الخاصيَّة البشرية في التفاعُل وإيصال تواريخ وحكايات وقصص ونصوص فكرية وعلمية، هي كلها العلامة البارزة على التطوُّر الحضاري للنوع الإنساني في مجمله؟ معرفة الآخر هي أيضاً معرفة الذات، لأن الذات لا تعرف ذاتها سوى بوسيط الغير الذي هو لها في مقام المرآة التي تعكس ملامحها، أي محاسنها ومساوئها. تلعب الترجمة دور الوسيط كما أسلفنا، في إنجاز هذا «**التلاقي**» بين الأنا والآخر، القائم بدوره على «**التلقِّي**» من الأنا أو من الآخر. التلقِّي هو الوجه الحيّ للتلاقي؛ هو الوجه الخلاَّق للتلاقح بين الأفكار واللغات.

خاتمة

الترجمة هي عملية لا تبلغ الكمال، لكنها تكتمل باستيفاء حقوق النص والمترجم، عندما تكون ذات غاية تكوينية. الترجمة هي الرغبة في الاكتمال (perfectibility)، وما يكتنف هذه الرغبة من قيم التكوين الذاتي بالاشتغال على المهارات قصد امتحانها أمام النصوص المراد ترجمتها. يُبرز كل مترجم قدراً من المهارة تعود إلى الطبع (هَبْتُوس) الذي هو عليه؛ وهذا الأمر يُفسِّر لماذا تختلف الترجمات من مترجم إلى آخر، ولا يمكن الوصول إلى ترجمة كاملة ونهائية. يمكن ترجمة النص نفسه عدَّة مرَّات، وبطرائق لغوية وأسلوبية وبلاغية مختلفة. خُلُقية السلوك الترجمي هي «أخلاقيات في التَّناهي»، تُبيّن حدود العمل الترجمي، حدود ذاتية وموضوعية في الوقت نفسه، بالمقارنة مع الكفاءات المطبَّقة (حُسن أو سوء الترجمة، الإلمام الكافي أو غير الكافي باللغات، المعرفة الدقيقة أو السطحية بتاريخ النص، إلخ)؛ وبالمقارنة أيضاً مع انتفاء الاختزال (incommensurability) بين اللغات، لأن كل لغة لها رؤية معيَّنة للعالم وتتميَّز عن غيرها بثقافة ولهجة وخزَّان رمزي من الأمثال والحِكم والقصص، أي أنها تنفرد بطاقة في التخيُّل تختلف عن غيرها. ممَّا يجعل الترجمة ممكنة من حيث النقل والتأويل، ومستحيلة من حيث الوصول إلى نسخة كاملة ونهائية عن النصوص المنقولة.

***

هوامش المقال:

[1] Jean-René Ladmiral, *Traduire : théorèmes pour la traduction*, Paris, Payot, 1979, p. 11.
[2] Marc de Launey, *Qu'est-ce que traduire?*, Paris, Vrin, coll. « Chemins philosophiques », 2006, p. 13.
[3] Martin Luther, *Écrits sur la traduction*, trad. Catherine Bocquet, préface Michel Grandjean, Paris, Les Belles Lettres, 2017.
[4] Friedrich Schleiermacher, *Des différentes méthodes de traduire et autre texte*, trad. Antoine Berman et Christian Berner, Paris, Seuil, 1999.
[5] Hand-Georg Gadamer, *Vérité et méthode : les grands lignes d'une herméneutique philosophique*, trad. P. Fruchon, J. Grondin et G. Merlio, Paris, Seuil, coll. « L'Ordre philosophique », 1996, p. 406.
[6] Paul Ricoeur, *Sur la traduction*, Paris, Bayard, 2004.
[7] Barbara Cassan, Marc Crépon et François Prost, « Morale/Éthique », In : Barbara Cassan (éd.), *Vocabulaire européen des philosophies*, Paris, Seuil/Le Robert, 2010, p. 819-820.
[8] Pierre Bourdieu, *La Distinction*, Paris, Minuit, 1979, p. 191.

[9] P. Bourdieu, *Questions de sociologie*, Minuit, 1980, p. 134.
[10] Thomas d'Aquin, *Somme théologique*, I, 75, 5c, cité par Marc de Launay, *Qu'est-ce que traduire?*, *op. cit.*, p. 21 : « *quidquid recipitur ad modum recipientis recipitur*/Quel que soit ce qui est reçu, il l'est selon les modalités propres au récepteur ».
[11] P. Bourdieu, *Réponses*, Paris, Seuil, 1992, p. 101.
[12] ابن مسكويه، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، القاهرة، مطبعة الترقي، 1317 هـ، ص24.
[13] المرجع نفسه.
[14] محمد شوقي الزين، **نقد العقل الثقافي**، الجزء الأول: فلسفة التكوين وفكرة الثقافة (أساسيات نظرية البيلدونغ)، منشورات مجد ومدارج ودار الوسام العربي، بيروت-الجزائر، 2018.
[15] حول هذه الثنائية، طالع: ميشال دو سارتو، **ابتكار الحياة اليومية**، ترجمة محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ودار أمان، بيروت-الجزائر-الرباط، ط1، 2011، ص30-31 وص93-97؛ محمد شوقي الزين، **الغسق والنسق: مقدمة في أفكار ميشال دو سارتو**، منشورات مجد ومدارج ودار الوسام العربي، بيروت-الجزائر، ط1، 2018، ص283-292.
[16] Antoine Berman, « Traduction ethnocentrique et traduction hypertextuelle », *L'Écrit du temps*, été 1984, p. 109-123.
[17] طالع: طه عبد الرحمن، **فقه الفلسفة**، **1. الفلسفة والترجمة**، المركز الثقافي العربي، ط1، 1995، الباب الثالث والباب الرابع من الكتاب.

قائمة المصادر والمراجع:

ابن مسكويه، **تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق**، القاهرة، مطبعة الترقي، 1317 هـ.

بنعبد العالي (عبد السلام)، **في الترجمة**، دار توبقال، الدار البيضاء، 2006.

دو سارتو (ميشال)، **ابتكار الحياة اليومية**، ترجمة محمد شوقي الزين، منشورات الاختلاف والدار العربية للعلوم ودار أمان، بيروت-الجزائر-الرباط، ط1، 2011.

ريكور (بول)، **عن الترجمة**، ترجمة حسن خمري، منشورات الاختلاف/الدار العربية للعلوم، الجزائر-بيروت، 2008.

الزين (محمد شوقي)، **الترجمة، الهيرمينوطيقا، الاستيطيقا: دروس في طبيعة القول الفلسفي بين النقل والتأويل**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، منشورات الوسام العربي ودار مدارج، ط1، 2018.

الزين (محمد شوقي)، **الغسق والنسق: مقدمة في أفكار ميشال دو سارتو**، منشورات مجد ومدارج ودار الوسام العربي، بيروت-الجزائر، ط1، 2018.

عبد الرحمن (طه)، **فقه الفلسفة**، **1. الفلسفة والترجمة**، المركز الثقافي العربي، ط1، 1995.

لودورير (ماريان)، **الترجمة: النموذج التأويلي**، ترجمة فايزة القاسم، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 2012.

***

BENJAMIN (Walter), « La tâche du traducteur », in : *Œuvres I*, trad. Maurice de Gandillac, Paris, Gallimard, 2000, coll. « Folio/Essais », p. 244-262.

BERMAN (Antoine), *L'Épreuve de l'étranger. Culture et traduction dans l'Allemagne romantique*, Paris, Gallimard, 1984.

BERNER (Christian) et Tatiana MILLIARESSI, *La traduction : philosophie et tradition*, Presses universitaires du Septentrion, 2011, coll. « Philosophie et Linguistique ».

BOURDIEU (Pierre), *La Distinction*, Paris, Minuit, 1979.

BOURDIEU, *Questions de sociologie*, Minuit, 1980.

BOURDIEU, *Réponses*, Paris, Seuil, 1992.

CASSAN (Barbara, éd.), *Vocabulaire européen des philosophies*, Paris, Seuil/Le Robert, 2010.

DE LAUNAY (Marc), *Qu'est-ce que traduire ?* Paris, Vrin, 2006.

GADAMER (Hans-Georg), *Vérité et méthode : les grands lignes d'une herméneutique philosophique*, trad. P. Fruchon, J. Grondin et G. Merlio, Paris, Seuil, coll. « L'Ordre philosophique », 1996.

LADMIRAL (Jean-René), *Traduire : théorèmes pour la traduction*, Paris, Payot, 1979.

LUTHER (Martin), *Écrits sur la traduction*, trad. Catherine Bocquet, préface Michel Grandjean, Paris, Les Belles Lettres, 2017.

RICOEUR (Paul), *Sur la traduction*, Paris, Bayard, 2004.

SCHLEIERMACHER (Friedrich), *Des différentes méthodes de traduire et autre texte*, trad. Antoine Berman et Christian Berner, Paris, Seuil, 1999.